المجال بين التطور التاريخي وواقع بنائه وإعادة تشكله: نموذج ممر تاوريرت-العيون

The space between historical evolution and the reality of its construction and reshaping: The model of the Taourirt-Elaioun corridor

د. لاخضري محمد، د. ازياش امحمد

دكتور في الجغرافيا البشرية، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

مختبر دينامية الأوساط الجافة: الإعداد والتنمية الجهوية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة

Mohamed.lakhdar@ump.ac.ma

https://orcid.org/0000-0003-0897-8794

ملخص

إن تفاوت المناطق الجغرافية واقع يطبع المجال، ويفسر بتضافر مجموعة من العوامل التاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية. إن تتبع السيرورة التاريخية للأوساط الجغرافية يُمكِّن من فهم مختلف التحولات التي لحقت به، سواء من حيث المظهر العام لتشكل المجال عبر التاريخ، أو من حيث تحليل خلفيات البناء وتبيان نتائجها على الحالة التي يعيشها بين النهوض والتعثر. فاستيعاب مكونات تنظيم المجال سياسيا وإداريا واقتصاديا واجتماعيا وبيئيا وثقافيا، تستند على حصيلة تطور تاريخي متتالي الحلقات تكون أساسا لاستشراف المستقبل برؤية واضحة.

عرف ممر تاوريرت- العيون تطورات تاريخية أثرت على التنمية الترابية المحلية بداخله مما جعلها تتأرجح بين النهوض والتعثر، إلا أن الثابت هو دوره كممجال للعبور وهذا يعتبر في حد ذاته نقطة قوة لهذا الإقليم الفتي، الذي تقوت مكانته بدينامية مدينة تاوريرت كمركز إقليمي ومن ثم تكرست وظيفتها في تدبير المجال المحلي. وتهدف الدراسة إلى تحليل تفاعلات الإنسان والمجال عبر التاريخ في تشكيل واقع تنظيم المجال الذي يميز ممر تاوريرت- العيون، قصد الوصول إلى أهمية هذا التطور التاريخي في استشراف واقع التنمية بالمجال المدروس.

الكلمات المفاتيح: بناء المجال؛ إعادة التشكل؛ ممر تاوريرت-العيون؛ التنمية الترابية.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال:

لاخضري، م.، وازياش، م. (2026). المجال بين التطور التاريخي وواقع بنائه وإعادة تشكله: نموذج ممر تاوريرت-العيون. *مجلة آفاق بحثية متعددة التخصصات (ARH)*، *1* (1)، 80–101. https://doi.org/10.5281/zenodo.19513858

Abstract

The disparity of geographical areas is a reality that shapes space and can be explained by a combination of historical, geographical, economic, and political factors. Tracking the historical development of geographical environments allows us to understand the transformations they have undergone, both in terms of the general formation of the space over time and by analyzing the foundations of its construction to clarify its current state, oscillating between progress and stagnation. Understanding the components of space organization-politically, administratively, economically, socially, environmentally, and culturally-is based on a sequential historical development that serves as a foundation for envisioning the future with a clear vision.

The Taourirt-Elaioun corridor has experienced historical developments affecting local territorial growth, causing it to oscillate between progress and stagnation. However, its constant role as a transit area remains a strength for this young region. This position has been reinforced by the dynamics of the city of Taourirt as a regional center, consolidating its function in managing local space. This study aims to analyze the interactions between humans and the space throughout history in shaping the spatial organization that characterizes the Taourirt-Elaioun corridor, in order to assess the importance of this historical development in anticipating the future of development in the area studied.

Keywords: spatial construction ; reshaping; Taourirt-Alaioun corridor ; land development.

مقدمة

يعد إقليم تاوريرت من الأقاليم الفتية التي أحدثت في 9 أبريل 1997، كان تابعا في البداية لإقليم بركان قبل أن يستقل بذاته. يتوفر هذا الإقليم على رصيد مهم من الثروات والموارد البشرية والطبيعية القائمة أساسا على الفلاحة. يتميز هذا الإقليم بموقع استراتيجي، فهو يقع وسط جهة الشرق ومجال عبور بين غرب المغرب وشرقه. ينفتح على القطب الاقتصادي للناظور من خلال علاقات تجارية مهمة. ومن المنتظر أن يؤدي ميناء الناظور غرب المتوسط أهمية قصوى في تحريك العجلة الصناعية بالإقليم. جنوبا، يمتد مجال نفوذ إقليم تاوريرت إلى عمق الهضاب العليا من خلال سوق مدينة تاوريرت الذي يعتبر من أهم الأسواق الجهوية في تجارة الماشية. وفرت هذه المؤهلات لإقليم تاوريرت خصوصيات وظيفية ساعدته في تنمية اشعاعه ونفوذه.

يقع إقليم تاوريرت في الشمال الشرقي للمغرب، وينتمي إلى جهة الشرق. يحده شرقًا إقليما وجدة-أنجاد وجرادة، وشمالًا إقليما الناظور وبركان، وجنوبًا إقليم فجيج، وغربًا إقليم جرسيف.. يمتد الإقليم على مساحة 8541 كلم2، ووصل عدد ساكنته حسب الإحصاء العام للسكان والسكنى 2024 إلى 220157 نسمة. هذا الموقع الجغرافي للإقليم له أهميته كخيار حقيقي لتأهيل مختلف الوظائف من أجل تحقيق إقلاع تنموي مستدام يساعد في اندماجه الجهوي والوطني، حيث يؤهله لأن يصبح قطبا للتجميع والتوزيع والعبور، خاصة نحو جنوب الجهة، عبر تنمية وظيفة مينائية جافة كمنصة تابعة لميناء الناظور غرب المتوسط، بل ويمكن أن يفتح خطا للتبادل بين جهة الشرق والجهات الجنوبية والجنوبية الشرقية وما لذلك من أهمية في تدعيم التوازن على المستوى الوطني.

إن فهم التاريخ المحلي والموروث التاريخي عناصر أساسية لتحديد هوية إقليم تاوريرت التي ستساعده في تشكيل مجال نفوذه محليا وفي التموقع ضمن أقاليم جهة الشرق وفحص العديد من الظواهر الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية.

خريطة رقم 1: توطين مجال الدراسة في بعده الجهوي والوطني

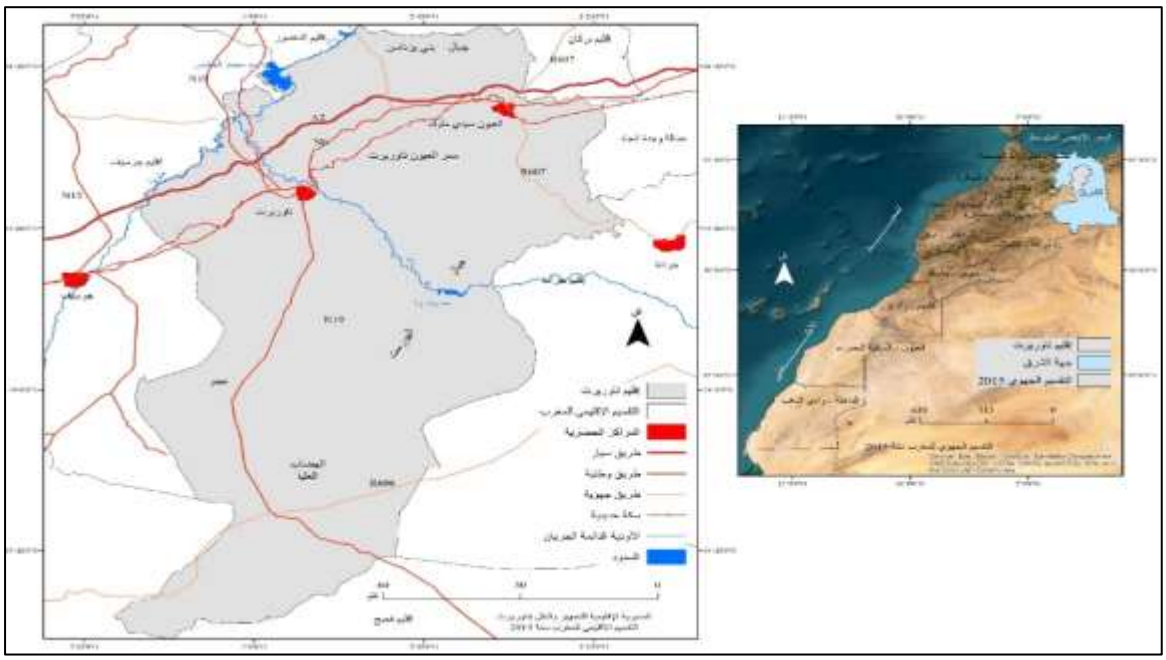

الإشكالية ومنهجية الدراسة

إن تتبع مسار البناء المجالي الذي عرفه إقليم تاوريرت، يوضح أنه منطقة ربط تاريخية بين غرب البلاد وشرقها، وهي وظيفة قديمة تعاظمت مع تقوية شبكة الطرق (طريق سيار، خطان للسكك الحديدية، طرق وطنية)، حيث مكنت هذه المنظومة الطرقية من جعله محورا للمواصلات بين أقاليم جهة الشرق وعقدة طرقية يربط بين جميع الاتجاهات، بين شرق المغرب وغربه، وبين البحر الأبيض المتوسط والهضاب العليا، الأمر الذي يشكل عامل تميز عن باقي الأقاليم بالجهة. إلا أن هذه الأهمية التي جعلت منطقة الدراسة منفتحة على شمال الجهة وجنوبها لم تستطع تطوير أنشطة متوازنة بين الأقاليم المشكلة للجهة، ولم تواكب تحقيق وظائف جديدة للإقليم تقوي مجال نفوذها، حيث اتسم مجالها بهشاشة الاقتصاد المحلي وضعف مستويات التأهيل وتعثر قدراتها التنافسية وانتشار البطالة والهجرة.

في ظل هذه المتغيرات فإن الإشكالية المركزية للدراسة تتمحور حول تحليل تفاعلات الإنسان والمجال عبر التاريخ في تشكيل واقع تنظيم المجال الذي يميز ممر تاوريرت- العيون، قصد الوصول إلى أهمية هذا التطور التاريخي في استشراف واقع التنمية بالمجال المدروس. ويمكن تفكيك الإشكالية إلى أسئلة فرعية منها:

ما أهمية التطور التاريخي في تشكيل واقع تنظيم المجال بممر تاوريرت العيون؟

ما الصعوبات التي تعترض الإقليم في النهوض؟

إن معالجة وتفكيك العناصر المكونة للإشكالية تطلب اعتماد المنهج التاريخي لرصد التطورات التي طرأت على المجال المدروس، سواء من حيث كونه مجال تاريخي عرف تحركات بشرية وتحليل خلفيات النهوض والتعثر. كما مكنتنا الملاحظات الميدانية من الوقوف على مختلف خصوصيات مجال الدراسة سواء المتشابهة أو المختلفة (أرياف ممر تاوريرت-العيون) ومتابعة تطورها، إلى جانب الزيارات المتكررة للمصالح الإدارية على اختلاف مجال تدخلها للحصول على الوثائق الضرورية (البرامج التنموية والتدخلية، التقارير، المنوغرافيات).

التحليل والمناقشة

1. تنظيم المجال المحلي لإقليم تاوريرت والمنافسة المجالية

عرف إقليم تاوريرت تطورات تاريخية أثرت على التنمية الترابية المحلية بداخله مما جعلها تتأرجح بين النهوض والتعثر، إلا أن الثابت هو دوره كمجال للعبور وهذا يعتبر في حد ذاته نقطة قوة لهذا الإقليم الفتي، الذي تقوت مكانته بدينامية مدينة تاوريرت كمركز إقليمي ومن ثم تكرست وظيفتها في تدبير المجال المحلي.

1.1. جيومورفولوجية التسمية: دراسة في انعكاس التضاريس على الطوبونيميا)

يحتمل أن يكون لاسم تاوريرت بُعْد طبوغرافي مشتق أساسا من كلمة "أورير" ذات الأصل الأمازيغي، وتعني التل أو الكدية وهي في الأصل تنطق "ثاورارت" ولتسهيل النطق تنطق الثاء-تاء فأصبحت تعرف بتاوريرت. لقد عُرِفت المدينة بأسماء مختلفة في الكتابات التاريخية باسم "صاع" أو "صاء" نسبة لواد "زا"، فيذكر المؤرخ أبو عبيد الله البكري في معرض حديثه عن المدن والقرى الموجودة بين مصر وبلاد المغرب " والطريق إلى سجلماسة تخرج من وجدة إلى صاع وهي قرية ذات نهر وثمار ومزارع" (البكري أبو عبيد الله، 1965، ص. 90). وردت باسم صاء عند أبي بكر بن علي الصنهاجي في كتابه المهدي بن تومرت أثناء حديثه عن مرور هذا الأخير عبر المنطقة قادما من المغرب الأوسط في اتجاه المغرب الأقصى: " فجد بنا السير حتى وصل صاء فلما دخلها، نظر لنساء مزينات محليات يبعن لبنا، فغطى المعصوم وجهه حتى جاوزهن" (الصنهاجي أبو بكر علي، 2004، ص. 21).

يظهر من المصادر التاريخية أن اسم تاوريرت ارتبط بالمدينة منذ الفترة المرينية في كتابات من عاصروا هذه المرحلة أمثال ابن خلدون (ابن خلدون عبد الرحمان، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 2014)، واستمرت في احتلالها مكانة مهمة من خلال موقعها بمحاذاة الطريق السلطانية. وعلى اعتبار الأهمية التي أعطيت للمدينة في فترة الحماية وما واكبها من استقطاب حضري، أصبحت هذه المدينة مركز الإقليم الفتي الذي حمل اسم هذه المدينة التاريخية.

2.1. مركزية القبائل والمجال الريفي في تنظيم المجال المحلي قبل فترة الحماية

ظل مجال دبدو-تاوريرت-العيون لفترات زمنية طويلة على غرار باقي التراب الوطني، مجالا لهيمنة القبائل في إطار الزراعة والرعي، واعتبرت مركزية القبيلة فاعلا أساسيا في تنظيم مختلف أشكال استغلال المجال، وتميزت العلاقات فيما بينها بالتكامل تارة، وبالتنافس والصراع تارة أخرى (لوي فوانو، 1912، ص. 244). وساهمت حركات السلاطين في إخماد الصراعات، فكان بمجرد انتهائها تعود النزاعات القبلية.

أدت المنطقة أدوارا تاريخية مهمة سياسيا واقتصاديا نظرا لموقعها الاستراتيجي على الطريق الرابطة بين فاس وتلمسان من جهة، ثم بين سجلماسة ومليلية من جهة ثانية، وشكلت محطة تجارية مهمة في مسلك تجارة القوافل الصحراوية بشمال إفريقيا حتى قبل تأسيس قصبتي دبدو وتاوريرت في عهد الدولة المرينية (ابن خلدون عبد الرحمان، تحقيق علي عبد الواحد وافي، 2014)، وهكذا ارتبطت بعلاقات تجارية مع الجزائر ومليلية المحتلة وقبائل الهضاب العليا.

أسست بممر تاوريرت العيون ثلاث قصبات على فترات تاريخية مختلفة (دبدو وتاوريرت والعيون) كانت لها أهمية بارزة في هيكلة المجال وتنظيم القبائل المحيطة بها ومواجهة الاضطرابات داخلها ومراقبتها، وبالأخص تأمين الطرق التجارية في اتجاه شرق-غرب وفي اتجاه شمال-جنوب، وتدبير الصراعات القبلية حول مد مجال نفوذها الرعوي ومنابع المياه التي كانت تمارس فيها الزراعة (بوطيب الطاك، 1991، ص. 101-102).

شكل ممر تاوريرت العيون منطقة عبور فكانت تتعرض للعديد من الهجمات مما جعل إمارة دبدو ذات مكانة استراتيجية منيعة ومحصنة، بفعل موقعها الجبلي الحصين والمنيع: "دبدو مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل شاهق منيع جدا باستحكاماته الطبيعية" (الحسن بن محمد الوزان الفاسي 1983، ص. 351). إلا أن العناية التي أعطاها السلاطين العلويون للمنطقة وخاصة المناطق المطلة على الطريق السلطانية، نقل الثقل الاقتصادي والسياسي إلى قصبة

تاوريرت التي جددها السلطان مولاي إسماعيل وأنزل فيها مائة فارس "فجدَّدها وأنزل فيها مائةَ فارس من عبيده بعيالهم وأولادهم"، الناصري أحمد بن خالد 1997، *الاستقصا*، ج.7، ص. 62).

إن الصراعات القبلية وتحالف السلطة المخزنية مع قبيلة السجع التي تتوطن بالقرب من الطريق السلطانية على امتداد 30 كلم من الممر (من النعيمة إلى غرب قصبة العيون) (بونجون، 2008، ص. 27)، نافست قصبة العيون سيدي ملوك على السلطة الإقليمية لتاوريرت وبالأخص عندما تدخل المولى الحسن الأول عسكريا سنة 1875م وغير مركز القيادة والمراقبة القبلية من كرسيف معتمدا على قبائل السجع (بونجون، 2008، ص. 103).

تميزت فترة ما قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى المنطقة بالقوة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للقبيلة والمجال الريفي، وبالمقابل كان تأثير القصبات الثلاث محدودا أمام نفوذ القبائل، ومع مطلع القرن العشرين بدأت بوادر التحول بازدياد نفوذ وإشعاع المدن (تاوريرت ودبدو والعيون) وبرزت كمجالات للتأثير والتحكم في التنظيم الترابي والاقتصادي.

3.1. التحولات المجالية بالمنطقة خلال مرحلة الاستعمار

فطن المستعمر إلى المكانة الاستراتيجية التي تتميز بها المنطقة وقصباتها لخدمة مخططاتها الاستعمارية وفرض السيطرة على عمق التراب المغربي، باعتبارها من الممرات الرئيسية على الطريق المؤدية إلى العاصمة فاس. فعمل سنة 1909 على احتلال قصبة العيون وحماية سوقها وعزم بعدها على احتلال تاوريرت سنة 1910 بدعوى حماية سوق قصبة العيون سيدي ملوك، لتحقق توغل تدريجي في المجال في اتجاه دبدو لما لها من أهمية آنذاك كنقطة اتصال (سمير بوزويتة 2019، ص. 63).

جدول رقم 1: التقسيم الإداري لمنطقة العيون-تاوريرت-دبدو سنة 1912

المراقبة	الدائرة	الملحقة	عدد	المساحة
وجدة	وجدة	العيون	13203	1296
تاوريرت	ملوية	تاوريرت	13270	4500
	دبدو	دبدو	12069	3335

Varnier M. (1914):«la situation du Maroc Oriental à la fin de l'année 1912», p.30. Source :

ورد عند عبد الحق الصدق (2013)، ص. 135.

جعل قرار المقيم العام المؤرخ في 14 يناير 1920 التبعية الإدارية لمنطقة تاوريرت لناحية وجدة ومقرها بقصبة تاوريرت (Décision résidentielle du 14 janvier 1924)، وتحولت إلى مركز مدني، وعندها ازدادت أهمية المدينة في تنظيم مجالها المحلي الممتد إلى قبيلة الزوى جنوبا، ويتقاطع هذا التقسيم بشكل كبير مع التقسيم المعمول به حاليا.

عجل دخول الاستعمار الفرنسي بوضع تقطيع ترابي للمنطقة حتى يسهل اختراق النظام القبلي وذلك باعتماد تقسيم إداري يتكون من المراقبة المدنية التي تقسم المنطقة إلى دوائر، وبعدها تقسيم الدوائر إلى ملحقات، وتم إصدار قانون إنشاء جماعات للقبائل " تحدث بإيالتنا الشريفة جماعات تنوب قانونا عن القبائل أو فصائل القبائل التي سيقع تعيينها بقرار من وزيرنا الصدر الأعظم" (الدولة المغربية الشريفية المحمدية، الجريدة الرسمية، 1916، ص. 958-959). ومن بين الأهداف الكبرى المتحكمة في سياسة التقسيم هي تيسير استغلال الخيرات وضبط الأمن. وقد قسم مجال تاوريرت-العيون إلى ثلاث ملحقات: تاوريرت ودبدو تابعة إلى المراقبة المدنية لتاوريرت، بينما ملحقة العيون تابعة إلى المراقبة المدنية لوجدة ويعتبر واد الحصحاص الحد الطبيعي الفاصل بين المنطقتين.

اتجهت الأحداث مباشرة بعد وقوع المنطقة تحت نفوذ الاحتلال نحو تقوية مركزي تاوريرت والعيون في التأطير والتحكم المجالي والاقتصادي والاجتماعي، وبالمقابل تراجع دور الريف ومعه القبائل في تنظيم المجال.

الصورة 1: الجهاز اللاسلكي لتسهيل عملية الاتصال في فترة الحماية.

الصورة 2: جانب من الثكنة العسكرية الفرنسية بمركز تاوريرت خلال فترة الحماية.

المصدر: محمد العربي (2019): "محطات من تاريخ مقاومة قبائل المغرب الشرقي للاحتلال الفرنسي"، ورد ضمن المؤلف الجماعي: ذاكرة مقاومة منطقة تاوريرت للاحتلال الأجنبي وآفاق التنمية المستدامة، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير، مطبعة أصكوم، القنيطرة، ص. 101-103.

يظهر من خلال الصورتان تأسيس مركزا للاتصال والتواصل بمدينة تاوريرت لتسهيل عملية الاتصال بينها وبين باريس والجزائر وفاس عبر الجهاز اللاسلكي الذي أقامته القوات الفرنسية واعتبارها قاعدة عسكرية مركزية للعمليات، ينطلق منه الاحتلال للمناطق المجاورة لتسهيل الوصول إلى العاصمة، وهذا نابع من كون المدينة تقع على الطريق الذي يربط بين فاس ووجدة؛ أي بين المغرب والجزائر الفرنسية، إلى جانب وجودها ضمن مجال طبيعي له مقوماته الاقتصادية على مستوى الزراعة والرعي، وفي مفترق طرق مهم يتحكم في ثلاث اتجاهات حاسمة شمالا في اتجاه مول الباشا وغربا نحو جرسيف وتازة وجنوبا صوب دبدو.

صورة رقم 3: تشييد محطة القطار شمال غرب قصبة العيون من قبل المستعمر

المصدر: جماعة العيون سيدي ملوك (2019)، "منوغرافية جماعة العيون سيدي ملوك"، ص. 10.

ازدادت أهمية مركز العيون مباشرة بعد الاحتلال الفرنسي في تنظيم مجالها المحلي، حيث مثلت نقطة مرور بين وجدة شرقا، وتاوريرت غربا، وبالأخص مع تشييد محطة القطار والثكنة العسكرية. عرفت القصبة اشعاعا محليا خاصة مع تنامي أنشطة وخدمات وتجهيزات بمحيط القصبة.

صورة رقم 4: مدخل الثكنة العسكرية التي شيدها الاحتلال الفرنسي بشمال غرب قصبة العيون

المصدر: جماعة العيون سيدي ملوك (2019)، "منوغرافية جماعة العيون سيدي ملوك"، ص. 11.

نظرا للموقع الاستراتيجي لقصبة تاوريرت في مفترق الطرق الرابطة بين وجدة وتازة وبين الممر والشمال ومركزها الإداري والتجاري، فقد عرفت المدينة دينامية اقتصادية جعلتها منطقة استقطاب السكان وجلبت اليهود إليها من مركز دبدو (إحدى المراكز الكبرى لليهود في المغرب) (بوطيب طاك، 1991، ص. 105).

كما شيدت فرنسا العديد من المسالك إلى حدود سنة 1912، حتى يتسنى لها سرعة التدخل وسهولة تصدير منتجات المنطقة؛ الطريق الرابطة بين وجدة وتاوريرت مرورا بالعيون والنعيمة بطول 105 كلم، والطريق الرابطة بين تاوريرت ومول الباشا 20 كلم، والطريق الرابطة بين تاوريرت وكمبيرتو 22 كلم، والطريق الرابطة بين تاوريرت ومرادة مرورا بعين الدرسة 45 كلم، كما شيد خط السكك الحديدية سنة 1913 وربطت تاوريرت بوجدة ثم بالجزائر (عبد الحق الصدق، 2013، ص. 114).

خريطة رقم 2: الشبكة الطرقية بمنطقة تاوريرت- العيون- دبدو سنة 1928

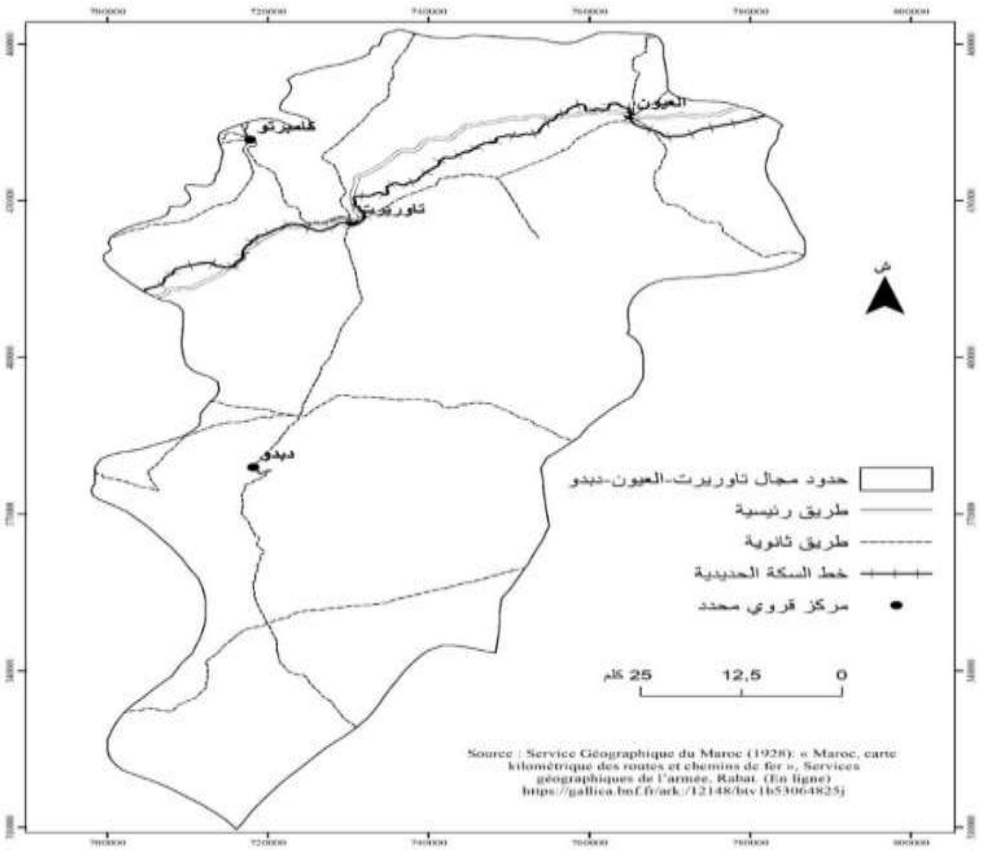

اهتمت سلطات الحماية بقطاع المواصلات ضمانا لتيسير تنقل المعمرين وجيش الاحتلال وتداول السلع والخدمات. حيث عملت على إنشاء طرق برية وسكة حديدية تمر عبر قصبتي تاوريرت والعيون، وهو ما يوضح تقوية نفوذهما كمراكز مستقطبة ومتحكمة في تنظيم المجال محليا. كما شيدت مدارس ومستوصفات سمح لمركزي العيون وتاوريرت بخلق مناطق نفوذ لم تكن متاحة قبل دخول الاستعمار، لكن سرعان ما توسع الإشعاع ليشمل قبائل مختلفة من مناطق بعيدة ونسجت علاقات اقتصادية واجتماعية جديدة، ساهمت في إحداث دينامية مجالية داخل هذين المركزين.

صورة رقم 5: المدرسة العمومية الاستعمارية شرق قصبة العيون

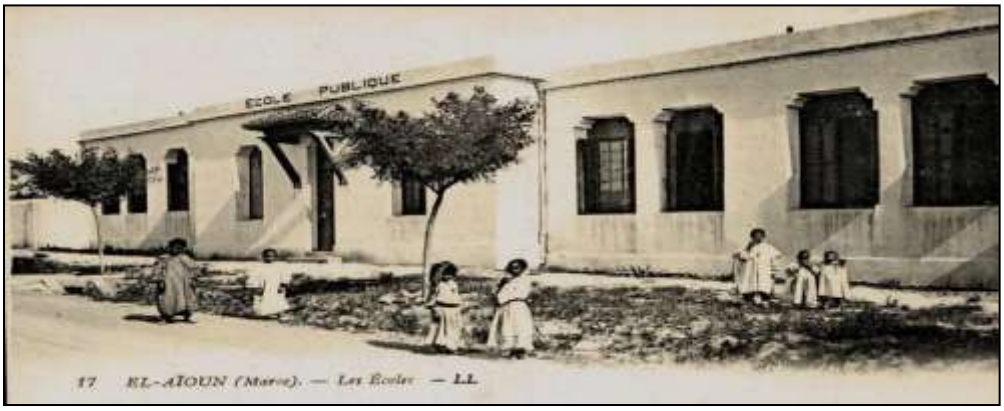

صورة رقم 6: مستشفى شيد بمدينة تاوريرت في الفترة الاستعمارية

المصدر: علي غزالي (2019)، "المعالم العمرانية الكولونيالية بمدينة تاوريرت بين الغنى والتدمير"، ورد ضمن المؤلف الجماعي: ذاكرة مقاومة منطقة تاوريرت للاحتلال الأجنبي وآفاق التنمية المستدامة، مطبعة أصكوم، القنيطرة، ص. 226.

بعد توطيد المحتل الفرنسي سيطرته على المنطقة، اهتم بتشييد الخدمات والتجهيزات العمومية من مدارس ومستوصفات ووكالات للبريد داخل التجمعات السكانية (العيون سيدي ملوك وتاوريرت ودبدو)، مما انعكس على تنظيم المجال وأدى إلى استقطاب هذه المراكز للساكنة الريفية، فتحولت إلى مراكز إدارية وعسكرية وتجارية بعدما كانت مهجورة وبدأت تشهد نموا سكانيا متزايدا.

جدول رقم 2: عدد المرضى المترددين على مستوصفات المراكز سنة 1912

التجمعات السكنية	عدد المرضى
تاوريرت	6289
العيون	5758
دبدو	2220
كامبرتو	1883
مول الباشا	391

30.. (1914), Op.Cit., p.Source: Varnier M

ومن نتائج السياسة الاستعمارية بالمنطقة تطور ساكنة المراكز من سنة 1926 إلى سنة 1952، حيث مكنت الحركة الإدارية والتجارية التي عرفتها في جلب الساكنة القروية نحو الاستقرار بها، فمثلا عرف مركز العيون نموا قدر بـ 112,4% بعد انتقاله من 1316 نسمة سنة 1926 إلى 2748 سنة 1952، وبالمقابل تميزت ساكنة دبدو بنمو بطيء نتيجة حركة المهاجرين اليهود، في البداية نحو الاستقرار في مركز تاوريرت، وفي نهاية الأربعينات من القرن الماضي نحو الأراضي الفلسطينية المحتلة.

جدول رقم 3: تطور عدد ساكنة المراكز الثلاثة ما بين 1926 و1951 (نسمة)

المراكز / السنوات	1926	1931	1936	1952
تاوريرت	1769	1263	1652	4655
العيون	1316	1531	1405	2784
دبدو	1824	1913	1751	2213

Source : Résultats du recensement de 1960, Volume III, p.p. 656-660

ورد عند عبد الحق الصدق (2013)، مرجع سابق، ص. 152.

نظرا لموقعها الجغرافي داخل الممر التجاري وجدة- تازة وكنقطة لمراقبة القبائل من الشمال (جبال بني يزناسن وقبائلها)، ومن الجنوب (الهضاب العليا وقبائلها الرحل) وارتباط وظيفتها بنشاط تربية المواشي لوجود سوق يتردد عليه من

مناطق مختلفة من الجهة، وقع اختيار المستعمر على مدينة تاوريرت كأهم مركز تجاري وإداري وخدماتي على الصعيد المحلي، حيث يمكن اعتبار تطوره وانطلاقته القوية تعود إلى المستعمر الفرنسي، مما يجعله مرشحا لأن يصبح عاصمة الإقليم.

عرف تنظيم المجال تغيرات عميقة خلال فترة الحماية بالمنطقة، فبعدما كانت القبائل هي المنظمة والمتحكمة في مجالها الريفي أصبحت المراكز الحضرية التي تعددت وظائفها وعينت داخلها جماعات تنوب عنهم في تحديد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وانطلاقا من ذلك بدأت المراكز الحضرية تهيمن على اتخاذ القرار بالمجالين القروي والحضري وتراجع دور القبائل في تأطير ومراقبة مجالها الريفي. فهذا التغير في تنظيم المجال خلال الفترة الاستعمارية ولمدة تزيد عن نصف قرن، أصبح حاسما في التطورات التي ستعرفها المنطقة بعد الاستقلال.

4.1. السياسة الترابية لمرحلة ما بعد الاستقلال وتشكل نواة الإقليم

بمجرد حصول المغرب على الاستقلال ومغادرة الجالية الأوربية واليهودية، ارتكز تنظيم المجال المحلي على ثلاث مراكز هي: تاوريرت والعيون ودبدو بفعل إشعاعهم المحلي وحيويتهم الاجتماعية والاقتصادية التي تقوت مع بداية السبعينات نتيجة الهجرة القروية المتزايدة إليهم من مختلف المناطق التي توجد ضمن نفوذهم.

أدت مدينة تاوريرت دورا مهما في تنظيم المجال المحلي، فَصُنِفَ سوق تاوريرت كسوق له ثقل متوسط وقطب إقليمي (Troin J.F. 1975, p.356) ما جعل نفوذها يمتد إلى منطقة مهمة من الهضاب العليا جنوبا إلى سهول ممر العيون- تاوريرت، وبحكم وجودها في مجال رعوي بالأساس، جعل تجارة المواشي هي الأهم بنسبة 35 % من التجار الوافدين إليها خلال السبعينات (Troin J.F. 1975, p.196). هذه الوظيفة التجارية تقوت مع اعتبارها كمقر دائرة تابعة لإقليم وجدة لتكون مركزا إداريا محليا تحتضن عدة مؤسسات اجتماعية تعليمية وصحية وقضائية (المحكمة) ما جعل إشعاعها ينمو باستمرار. بينما ارتبط الإشعاع المحلي لمركز العيون بالسوق الأسبوعي الذي كان قبلة للقبائل المجاورة؛ كما أنه تقوى مع اعتبار العيون مركز قيادة، وأصبح يحتضن عدة مؤسسات اجتماعية كالمدارس والمستوصفات وإعدادية، ومارست دبدو إشعاعها الإداري على المناطق المجاورة وبالأخص منطقة الكعدة.

إن هذا التحول الوظيفي واكبه تسارع النمو السكاني بتاوريرت- العيون بفعل استقطاب المهاجرين من الريف الذين كانت وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية تسوء بفعل الاهتمام الذي أولته تدخلات الدولة للمراكز الحضرية كمناطق جديدة لتنظيم ومراقبة المجال.

عرف مركزا تاوريرت والعيون نسبة نمو سكاني إيجابي خلال الفترة الممتدة من 1960 إلى 1994م، بفعل الهجرة القروية خلال عشرية السبعينات وبالأخص مع توالي سنوات الجفاف التي عرفتها المنطقة خلال هذه الفترة، فمثلا تطور عدد ساكنة مركز العيون من 7757 نسمة سنة 1960 إلى 30798 سنة 1994، فقد استقطبت ساكنة قروية مهمة من القبائل المجاورة التي تربطهم روابط قديمة مع هذا المركز. في حين شهدت دبدو تراجعا في ساكنتها نتيجة هجرة اليهود المغاربة باتجاه فلسطين المحتلة.

جدول رقم 4: معدل النمو السنوي للمراكز الحضرية بين 1960 و2014 بـ %

السنوات / المراكز	1971-1960	1982-1971	1994-1982	2004-1994	2014-2004
تاوريرت	6,53	6,43	4,65	3,19	2,52
العيون	5,62	8,21	3,32	1,21	0,13
دبدو	-2,69	3,74	0,91	1,84	0,88

المصدر: الإحصاءات العامة للسكان والسكنى، 1960، 1971، 1982، 1994، 2004، 2014.

كما استقطبت مدينة تاوريرت ساكنة قروية مهمة لِمَا أصبحت تتوفر عليه من بنيات عمرانية وأنشطة اقتصادية وتجارية توفر بعض فرص الشغل، وفي إطار هذا النشاط التجاري عرفت تطورا في عدد ساكنتها بنسبة 6,5 % سنويا ما بين 1971 و1982، ما جعل دورها المحلي كعاصمة إقليمية تتقوى باستمرار وبشكل متسارع.

جدول رقم 5: حجم ونسبة الهجرة في الزيادة العامة لساكنة تاوريرت والعيون بين 1960 و1982

المراكز الحضرية	1971-1960			1982-1971		
	الزيادة العامة	الهجرة الصافية	نسبة الهجرة الصافية	الزيادة العامة	الهجرة الصافية	نسبة الهجرة الصافية
تاوريرت	8238	5315	64,5	17086	10841	63,4
العيون	3664	2135	58,8	12778	9116	71,3
دبدو	-920	-1712	---	1369	507	37

Source : CERED (1987) : « La Dynamique démographique des centres urbains au Maroc », Rabat, p p. 36-43.

ورد عند حميمي عبد الحفيظ (2017)، مرجع سابق، ص. 120.

يشير الجدول رقم 5 إلى مدى مساهمة الهجرة في الزيادة العامة لساكنة المراكز الحضرية. فقد استفاد مركزا تاوريرت والعيون من الزيادة العامة بفعل الهجرة، في حين تراجعت ساكنة مدينة دبدو نتيجة هجرة اليهود الذين كانوا يستقرون بها. وقد ارتبطت الهجرة القروية بالظروف المناخية القاسية التي ميزت الفترتين الجافتين 1970-1971 و1980-1984 وهو ما أثر على نمط الإنتاج الرعوي وفقدان القطيع واضطرار الساكنة المحلية إلى النزوح نحو المراكز الحضرية لمحاولة الحصول على مورد عيش جديد (الطاك بوطيب، 1991، ص. 111).

وهكذا، نمت المراكز الحضرية بالمنطقة وبالأخص مدينة تاوريرت وأصبح إشعاعها بداية عقد التسعينات كعاصمة إقليمية، فتسارعت وتيرة الدينامية المجالية بمجال تاوريرت وتكرست معه هيمنة المجال الحضري على المجال الريفي الذي أصبح ضمن مجال نفوذه. كما تقوت مدينة تاوريرت لتشكل مع بداية الألفية الثالثة عاصمة للإقليم تنافس المجالات المحيطة على امتداد مجال نفوذها وقيامها بدور مهم في هيكلة المجال محليا وجهويا، عبر استقطابها للأنشطة التجارية وكذا السلع المهربة من مليلية والجزائر ولما يزيد عن 20000 شخص أسبوعيا وبالأخص في تربية المواشي التي تعتبر أحد أكبر أسواق الجهة الشرقية، إلى جانب بروز عدة وحدات صناعية تحويلية (Direction de l'Urbanisme, Agence urbaine d'Oujda (2002), p. 22.

2. إقليم فتي عرضة للمنافسة المجالية

برز إقليم تاوريرت بقطبه الحضري المتمثل في مدينة تاوريرت التي شهدت مع دخول الاستعمار نموا وتوسعا مهما جعلها تكرس دورها في تنظيم المجال المحلي، إلا أن وقوعها بالقرب من وجدة، القطب الجهوي شرقا، ومن مدينة جرسيف غربا والناظور شمالا، جعلها عرضة للتنافس المجالي وتقاسم تنظيم المجال.

1.2. إحداث إقليم تاوريرت

أحدث إقليم تاوريرت بموجب المرسوم عدد 281-97 بتاريخ 9 أبريل 1997، يمتد مجاله الترابي على مساحة تقدر بـ 8541 كلم^2، ويمثل 9,6 % من مجموع مساحة الجهة. ويتكون من ثلاث باشويات وثلاث دوائر وست قيادات وأربع عشرة جماعة ترابية منها عشر جماعات قروية وثلاث جماعات حضرية.

خريطة رقم 3: التقسيم الجماعي للتراب بإقليم تاوريرت

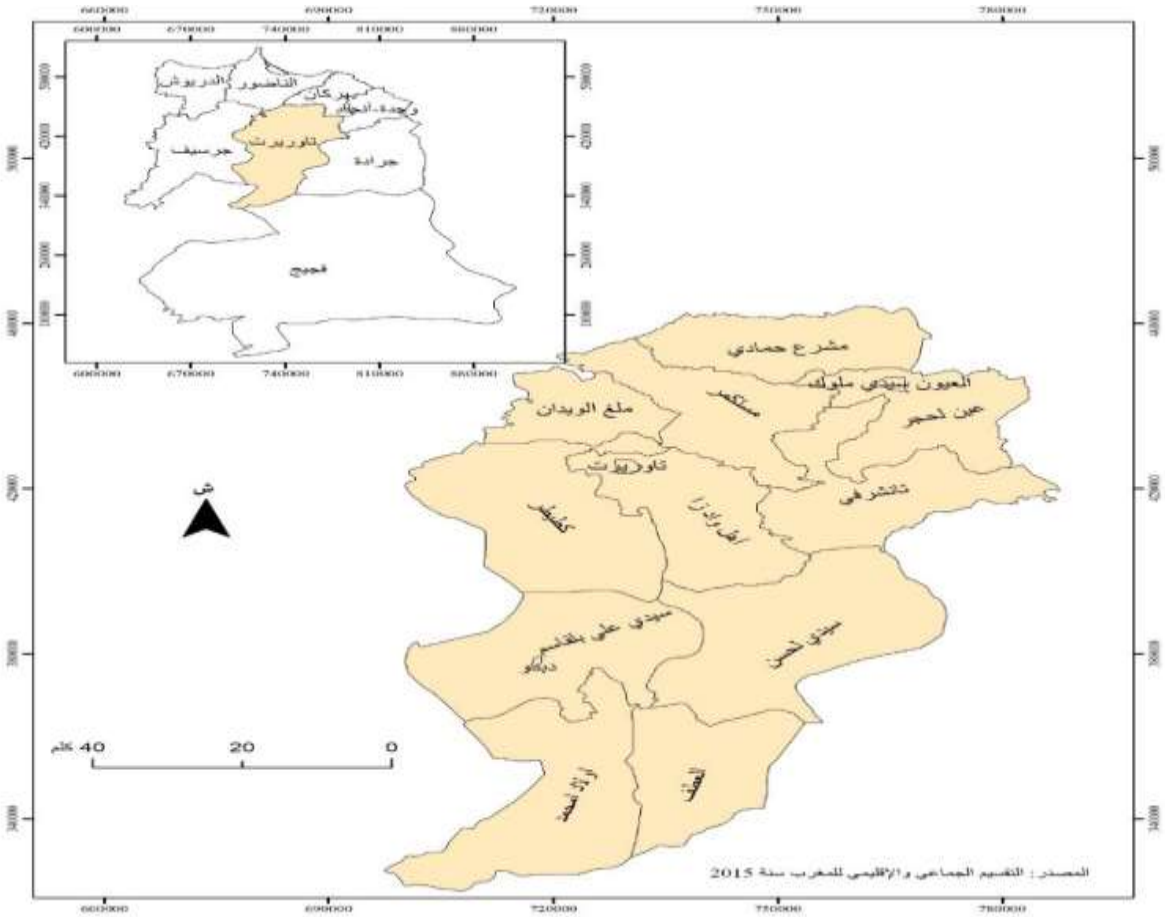

ومن مميزات إقليم تاوريرت وجوده وسط جهة الشرق (الخريطة 3) فيحده شمالا إقليما بركان والناظور وشرقا عمالة وجدة آنجاد وإقليم جرادة وغربا إقليم كرسيف وجنوبا إقليما فجيج وبولمان (جهة فاس مكناس). بلغ عدد ساكنة الإقليم 220157 نسمة حسب الإحصاء العام للسكان والسكنى سنة 2024، يمثلون نسبة 9,6 % من مجموع ساكنة الجهة، بكثافة سكانية تصل إلى 25,77 ن/كلم2 وتعتبر من الكثافات الضعيفة على المستوى الجهوي.

2.2. تاوريرت: عاصمة إقليمية آخذة في التوسع

تشكل دراسة مناطق النفوذ إحدى العناصر الرئيسية في تحديد تراتبية المجالات وفهم منطق تنظيم المجال المحلي والإقليمي. ودأب الباحثون على تصنيف تراتبية المجالات حسب الوظائف التي يؤديها كل مجال، وتنقسم إلى وظيفة اقتصادية واجتماعية وخدمية (عبد الحفيظ حميمي، 2017، ص. 131). وعلى مستوى إقليم تاوريرت، تعتبر مدينة تاوريرت مجالا متميزا تتمركز بداخله وسائل الإنتاج والخدمات ما جعل مجال نفوذها إقليميا بين الحوضين المنافسين من الشرق (وجدة) ومن الغرب (كرسيف). وتمارس المدينة الوظيفة الإقليمية في عدة ميادين:

- **الوظيفة الاقتصادية**: تتحدد مظاهر الوظيفة الاقتصادية لتاوريرت في دورها الرئيسي في جمع وتوزيع المنتوجات كالمواشي والحبوب والزيتون، إلى جانب استقطابها للعديد من وحدات تحويل المنتوجات الفلاحية لا سيما منتوج الزيتون في الحي الصناعي الممتد على مساحة 72 هكتارا (150 وحدة إنتاجية متخصصة في الزيتون بإشعاع إقليمي وجهوي ووطني ودولي). وتبين المتابعة الميدانية على المستوى التجاري ممارسة تاوريرت هيمنتها بشكل أساسي على مستوى دائرتي تاوريرت ودبدو وبشكل أقل نسبيا على مستوى دائرة العيون، وتنحصر التيارات التجارية بفعل المنافسة المجالية مع إقليمي وجدة شرقا وجرسيف غربا.

تعتبر دراسة إشعاع الأسواق من المؤشرات التي تسمح بالوقوف على التراتبية العامة للمراكز وديناميات مناطق نفوذ الأقطاب، ما يسمح بالوقوف على تنظيم المجال المحلي والإقليمي (عبد الحق الصدق، 2013، ص. 485). يعكس إشعاع الأسواق على مستوى إقليم تاوريرت التراتبية المجالية بداخله. حيث يتجاوز سوق تاوريرت إشعاع حدود الإقليم ويهيمن مع سوق وجدة على كل أسواق ممر وجدة- تاوريرت ما يؤكد دور المدينة كقطب إقليمي. ويعد كذلك سوق العيون من الأسواق التي تعرف دينامية مهمة بالإقليم باستقطابه للتجار من المدن المجاورة كوجدة وجرادة وتاوريرت وانفراده بالمجال الريفي المحيط به.

وبالرغم من تواجد أسواق قروية فإن مجال نفوذها لا يتجاوز المستوى المحلي بفعل تأثير الأسواق الكبرى، ونورد هنا مثالين: سوق الخميس بجماعة تنشرفي وسوق الجمعة بجماعة أولاد امحمد.

خريطة رقم 4: إشعاع أسواق المراكز الحضرية والقروية بإقليم تاوريرت

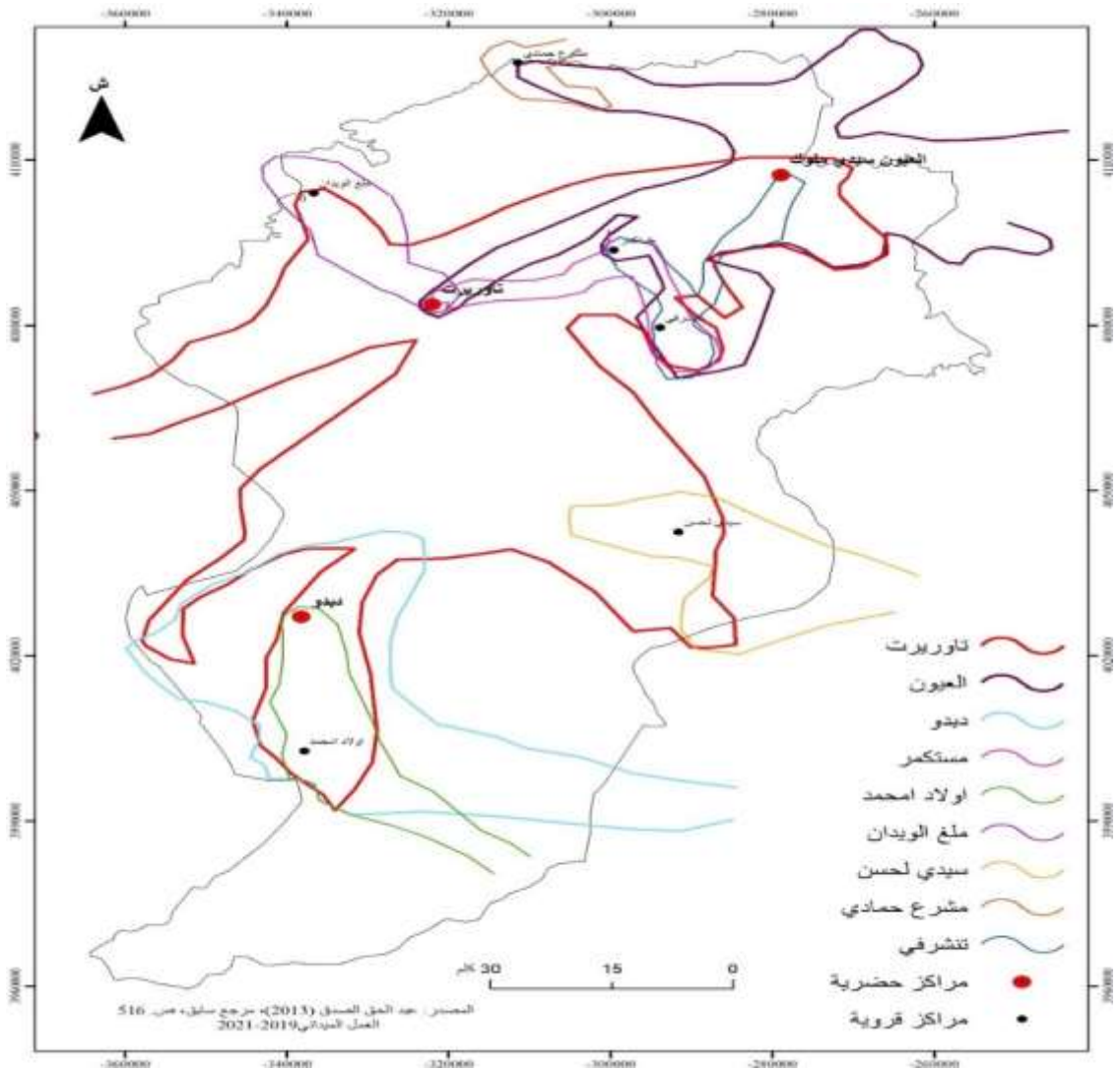

- **<u>الوظيفة الخدماتية</u>**: تمثل خريطة توزيع الخدمات الإدارية والعمومية من أكثر الوظائف التي تحدد منطقة النفوذ الإقليمي لمدينة تاوريرت، إذ نمت بها بشكل متسارع عندما تحولت إداريا إلى عاصمة للإقليم سنة 1997 وتوطنت بها المصالح الخارجية للوزارات (الداخلية والتعليم والصحة والفلاحة والصناعة والتجهيز والنقل والسكنى والتعمير والأوقاف...) مما وفر لها إشعاعا إقليميا.

إن توفر المدينة على مؤسسات تعليمية عليا يضمن لها مجال نفوذ إقليمي. فمعهد النقل واللوجستيك يضمن لها إشعاعا جهويا يتقوى إقليميا عبر معهد التكنولوجيا التطبيقية والنواة الجامعية التي توجد في طور التشييد. وازدادت أهمية نفوذ المدينة مع توفرها على عدد مهم من المؤسسات الصحية وتزايد عدد الأطباء رغم صعوبة منافستها لمدينة وجدة التي تجذب إليها الأطباء والمرضى من كل مناطق الجهة وذلك لتنوع الاختصاصات والمعدات وخاصة التخصصات الطبية الدقيقة.

خاتمة

إن مقاربة إشكالية تنظيم المجال، في سياق بنائه وإعادة تشكيله، تحليل التفاعل والدينامية بين المجال والمجتمع داخل الإقليم، بهدف فهم الخصائص الجغرافية والتاريخية والديموغرافية والاقتصادية التي تؤثر بشكل كبير على تنظيم الفضاء، يأتي في ظل استمرار تأثير الظروف الطبيعية القاسية على علاقة الإنسان بالأرض. كما ساهمت هذه الدراسة في تكوين رصيد معرفي مكننا من تحليل الروابط المجالية بين المستويات المحلي، الإقليمي والجهوي، وفهم الآليات التي تتحكم فيها على مستوى إقليم تاوريرت.

وعلى العموم، احتلت مدينة تاوريرت مكانة وظيفية في تنظيم المجال وحصلت على نفوذها وإشعاعها اقتصاديا وخدماتيا وسكانيا، وهو ما يؤكد دورها وهيمنتها على الإقليم، الشيء الذي يجعل منها بحق قطبا إقليميا، غير أن بعض المجالات تنفلت من سيطرتها خاصة على مستوى التموين والاستشفاء والسياحة، وهو ما يوضح حجم المنافسة المجالية مع وجدة شرقا التي تتردد عليها ساكنة مدينة العيون والجماعات القروية المحيطة بها، وغربا مع مدينة جرسيف التي تجذب ساكنة الجماعتين القرويتين سيدي علي بلقاسم والكطيطر. كما أن شبه انعدام الأنشطة السياحية والتجهيزات المناسبة لذلك، يجعل الإقليم بلا نفوذ سياحي رغم المؤهلات التي يزخر بها، ما دفع ساكنة الإقليم إلى اختيار إقليمي بركان والناظور كمنطقتين سياحيتين ملائمتين.

لائحة المصادر والمراجع

- الصنهاجي، أبو بكر بن علي .(2004) .*أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين* (تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط2). الرباط: المطبعة الملكية .

- البكري، أبو عبيد الله .(1965) .*المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب* .باريس: مكتبة أمريكا والشرق .
- بوطيب الطاك. (1991). مدينة تاوريرت ودورها في المجال المحلي والجهوي. في :*المدينة المغاربية المتوسطة: رهان اللامركزية والتنمية المحلية* (أعمال الملتقى الثقافي الخامس لصفرو). مطبعة البلابل .
- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد .(1983) .*وصف إفريقيا* (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، ج1). بيروت: دار الغرب الإسلامي .
- بونجون، م .(2008) .*السجع: قبيلة بدوية بين البربر* (ترجمة محمد الغرايب). الرباط: مطبعة الرباط نت .
- الجماعة الحضرية العيون سيدي ملوك .(2019) .*منوغرافية جماعة العيون سيدي ملوك* .
- حميمي، عبد الحفيظ .(2017) .*دينامية المراكز الحضرية ودورها في تنظيم المجال الريفي وآفاق التنمية الترابية بممر وجدة-تاوريرت* (أطروحة دكتوراه غير منشورة). كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول، وجدة .
- بوزويتة، سمير. (2019). تاوريرت في قلب معارك التحرير (1910–1913). في :*ذاكرة مقاومة منطقة تاوريرت للاحتلال الأجنبي وآفاق التنمية المستدامة* .القنيطرة: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أصكوم .
- الصدق، عبد الحق .(2013) .*المدن والأرياف: العلاقات وتنظيم المجال في شمال شرق المغرب* (ط1). وجدة: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكتبة الطالب .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (د.ت) .*مقدمة ابن خلدون* (تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط7، 3 أجزاء). مصر: دار نهضة مصر للنشر.
- غزالي، علي. (2019). المعالم العمرانية الكولونيالية بمدينة تاوريرت بين الغنى والتدمير. في :*ذاكرة مقاومة منطقة تاوريرت للاحتلال الأجنبي وآفاق التنمية المستدامة* .القنيطرة: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أصكوم .
- فوانو، لوي .(2014) .*وجدة والعمالة: منوغرافية وجدة وقبائل شرق المغرب* (ترجمة محمد الغرايب). الرباط: مطابع الرباط نت.

- العربي، محمد. (2019). محطات من تاريخ مقاومة قبائل المغرب الشرقي للاحتلال الفرنسي. في: *ذاكرة مقاومة منطقة تاوريرت للاحتلال الأجنبي وآفاق التنمية المستدامة*. القنيطرة: منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة أصكوم.
- الناصري، أحمد بن خالد. (1997). *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى* (تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج7). الدار البيضاء: دار الكتاب.
- Résidence générale du Protectorat. (1924). *Décision résidentielle du 14 janvier 1924 portant création d'une nouvelle circonscription de contrôle civil*. *Bulletin officiel*, (587), 22 janvier 1924.
- Direction de l'Urbanisme, Agence urbaine d'Oujda. (2002). *Plan d'aménagement de Taourirt Ahl Oued Za: Rapport d'analyse et diagnostic*.
- Troin, J. F. (1975). *Les souks marocains: marchés ruraux et organisation de l'espace dans la moitié nord du Maroc* (Tome I). Aix-en-Provence: EDISUD.